العرب
الجمعة 2020/09/25
السنة 43 العدد 11831

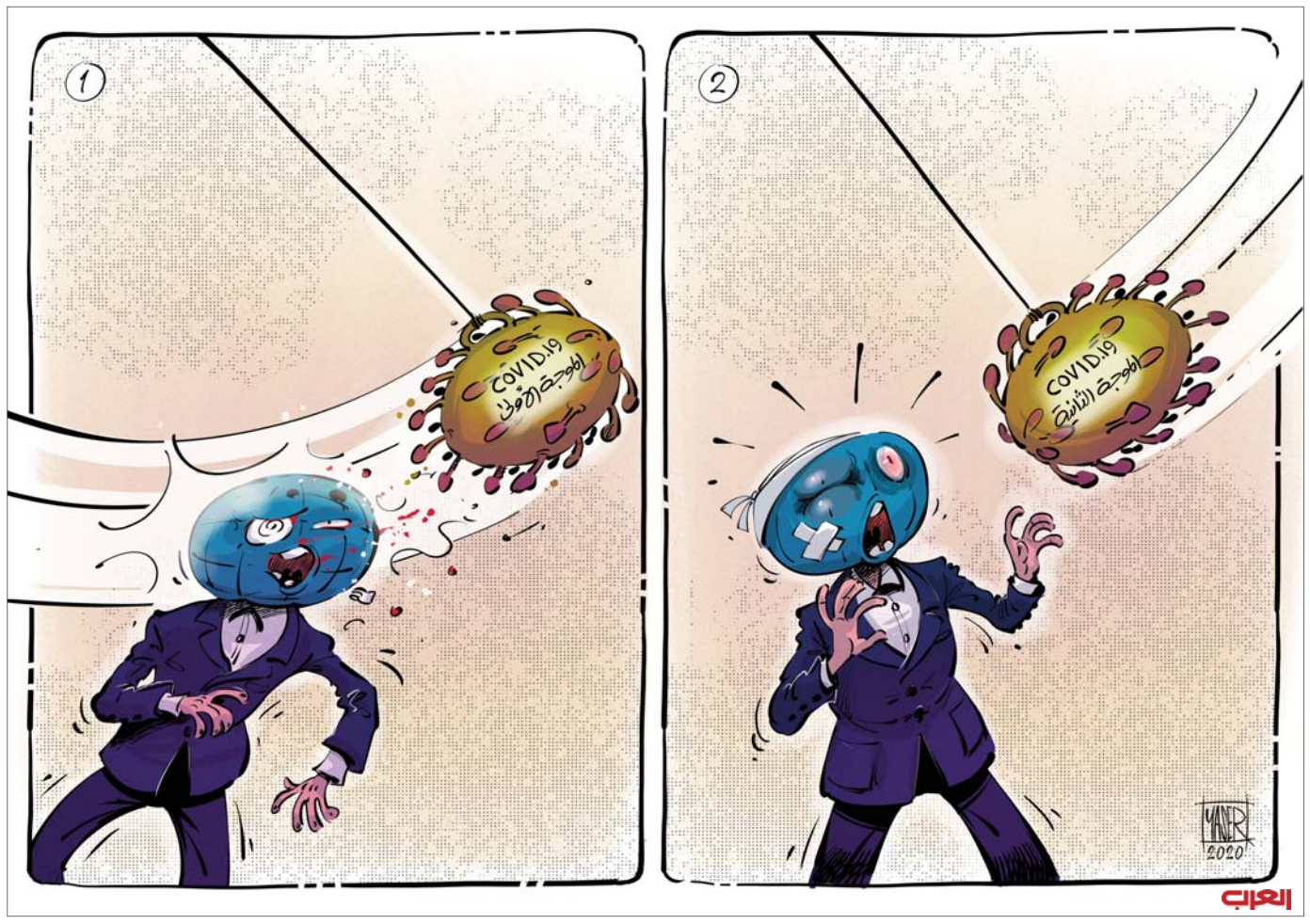

الملك سلمان وما لا يجرؤ اللبنانيون على قوله

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

أكثر ما تحتاج إليه المنطقة في هذه الأيّام هو الوضوح. إنّه الوضوح الذي عبّر عنه العاهل السعودي الملك سلمان بن عبدالعزيز في خطابه الأخير. لا شيء أفضل من الوضوح السياسي البعيد عن اللفّ والدوران، الوضوح الذي يعني بين ما يعنيه تسمية الأشياء بأسمائها. كان خطاب الملك سلمان بن عبدالعزيز في افتتاح دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة قمّة الوضوح. هذا ما تحتاج إليه المنطقة أكثر من أيّ شيء آخر في هذه المرحلة المصيرية التي تمرّ فيها، مرحلة اختلطت فيها الوطنية الحقيقية بالمتاجرة بفلسطين والشعارات الفارغة من نوع "المقاومة" و"الممانعة".

هناك عناوين كثيرة مهمّة في الخطاب. من بين أهمّ ما في الخطاب المقطع المتعلّق بلبنان. أكّد الملك سلمان بن عبدالعزيز الذي عرف لبنان عن كثب، وقوف السعودية إلى جانب الشعب اللبناني الذي تعرض إلى كارثة إنسانية بسبب التفجير الذي وقع في مرفأ بيروت، قال "يأتي ذلك (التفجير) نتيجة هيمنة حزب الله الإرهابي التابع لإيران على اتخاذ القرار في لبنان بقوة السلاح مما أدى إلى تعطيل مؤسسات الدولة الدستورية. إن تحقيق ما يتطلع إليه الشعب اللبناني الشقيق من أمن واستقرار ورخاء يتطلب تجريد هذا الحزب الإرهابي من السلاح".

ليس هذا الكلام كلاما عاديا بأيّ مقياس من المقاييس. إنّه يدل قبل أيّ شيء على أن المملكة العربيّة السعودية في حال دفاع عن النفس في ضوء ممارسات "حزب الله". لو لم يكن الأمر كذلك، لما ذهب الملك سلمان بن عبدالعزيز إلى هذا الحد في خطابه الذي يمكن وصفه بالتاريخي. للمرّة الأولى يجيب العاهل السعودي عن السؤال المحيّر الذي يشغل بال اللبنانيين منذ انفجار ميناء بيروت في الرابع من آب – أغسطس الماضي عن العلاقة بين "حزب الله" وما حدث من تدمير لحق ببيروت. ليس في لبنان من يجرؤ عن الحديث عن هذه العلاقة. ما قاله الملك سلمان إنجاز بحدّ ذاته، إنجاز يضع اللبنانيين أمام مسؤولياتهم بدل الهرب من الحقيقة والواقع المتمثّل في أن "حزب الله" كان يعرف تماما ماذا يجري في ميناء بيروت. لا شكّ أنّ هناك علامات استفهام كثيرة في شأن كارثة ميناء بيروت التي يرفض المسؤولون اللبنانيون، في مقدّمهم رئيس الجمهورية ميشال عون، استيعاب معناها، كما يرفضون البحث عن أسبابها. يرفضون صراحة تحقيقا دوليا يكشف الحقيقة ولماذا حصل ذلك التفجير الكبير في ذلك اليوم المشؤوم. ألم يقل رئيس الجمهورية إن التحقيق الدولي "مضيعة للوقت"؟ ما الذي يريد التغطية عليه عندما يصرّ على تفادي التحقيق الدولي بحجة الوقت؟ مضى شهران تقريبا على الكارثة التي شلت بيروت. لم يصدر إلى الآن ما يكشف ولو واحدا في المئة من الحقيقة التي قالها الملك سلمان بن عبدالعزيز للبنانيين بطريقة مباشرة وصريحة وبالفم الملآن. قال الملك، بكلّ بساطة، ما لا يجرؤ اللبنانيون على قوله. كان صوتهم المدوي في ظلّ المأساة التي سقط فيها لبنان.

من هذا المنطلق، يمكن وصف الخطاب الذي تلاه العاهل السعودي بأنّه تاريخي بالفعل، بل نقطة تحوّل في الصراع الدائر في المنطقة، وهو صراع ولد من المشروع التوسّعي الإيراني. يلجأ هذا المشروع إلى أدواته، حيث استطاع ذلك في كلّ دولة من الدول العربية، خصوصا في لبنان وسوريا والعراق واليمن والبحرين التي استطاعت دول الخليج العربية إنقاذها من إيران وأدواتها المحليّة والإقليمية المعروفة في العام 2011.

للمرّة الأولى يجيب العاهل السعودي عن السؤال المحيّر الذي يشغل بال اللبنانيين منذ انفجار ميناء بيروت في الرابع من آب – أغسطس الماضي عن العلاقة بين «حزب الله» وما حدث من تدمير لحق ببيروت

بالنسبة إلى لبنان، لم تقدّم السعودية سوى الخير. لا حاجة إلى تعداد ما قدمته المملكة من مساعدات إلى لبنان ولا حاجة إلى تعداد عدد اللبنانيين الذين عملوا وما زالوا يعملون في السعودية وعدد العائلات التي تعيش بفضل ما يأتيها من معيلها الذي يعمل في المملكة. اللبنانيون الذين يعملون في السعودية ينتمون إلى كلّ الطوائف والمناطق اللبنانية. لم تستثن المملكة أحدا. لم تفرّق في الماضي بين سنّي وشيعي ومسيحي ومسلم. أكثر من ذلك، كان السعوديون يشعرون أنّهم في بيتهم عندما كانوا يأتون إلى لبنان حيث امتلكوا شققا في بيروت وخارجها. ما الذي جعل الملك سلمان يتحدّث بالطريقة التي تحدّث بها أخيرا ويقول كلاما أقلّ ما يمكن أن يوصف به أنّه تصويب مباشر على الهدف ووضع للنقاط على الحروف؟

يشير كلام الملك سلمان إلى أن الكيل طفح في ضوء الأذى الذي يلحقه "حزب الله" بالمملكة انطلاقا من لبنان. ما قاله حسن نصرالله الأمين العام للحزب في حق السعودية وكبار المسؤولين فيها مسجّل بالصوت والصورة. اعتدى بوضوح ليس بعده وضوح على المملكة ورجالاتها. فوق ذلك، تحوّل لبنان إلى قاعدة يعمل منها الحوثيون ضدّ السعودية. ليس سرّا أن فضائية "المسيرة" التابعة للحوثيين تبث من بيروت وليس سرّا أن الحوثيين يتدرّبون عند "حزب الله". ليس سرّا أخيرا وليس آخرا أنّ بيروت هي ثاني أهمّ مدينة بالنسبة إلى الحوثيين، بعد صنعاء.

قدّم الملك سلمان بن عبدالعزيز خدمة ليس بعدها خدمة إلى لبنان واللبنانيين. قال عنهم ما لا يستطيعون قوله. لذلك يستحقّ هذا الرجل الذي أحبّ لبنان كلّ شكر وامتنان ومحبّة.

ليس غريبا قوله أيضا في خطابه "إننا في المملكة انطلاقاً من موقعنا في العالم الإسلامي نضطلع بمسؤولية خاصة وتاريخية، تتمثل في حماية عقيدتنا الإسلامية السمحة من محاولات التشويه من التنظيمات الإرهابية والمجموعات المتطرفة"، مضيفا "إن التنظيمات الإرهابية والمتطرفة، تجد بيئة خصبة للظهور والانتشار في الدول التي تشهد انقسامات طائفية، وضعفاً وانهياراً في مؤسسات الدول، وعلينا، إن أردنا أن ننتصر في معركتنا مع الإرهاب، أن لا نتهاون في مواجهة الدول الراعية للإرهاب والطائفية".

هناك في الخطاب ربط مباشر بين الطائفية والإرهاب. هناك فهم في العمق للعلاقة بين الإرهاب من جهة وإثارة الغرائز المذهبية التي هي في أساس المشروع التوسّعي الإيراني من جهة أخرى.

ما يكشفه الملك سلمان عبر خطابه أنّ هناك فهما في العمق لخطورة السياسة الإيرانية. ما يكشفه أن هناك جرأة سعودية ليس بعدها جرأة. السعودية تعتبر نفسها في حال حرب دفاعية مع إيران. هناك هجمة عليها من اليمن ومن أماكن أخرى بينها لبنان. هل يفهم اللبنانيون ذلك ويتصارحون مع أنفسهم ويدركون عمق المأزق الذي أوصلهم إليه "حزب الله" ومن خلفه إيران؟

تغيير صورة سيناء في العقل المصري

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

عُرفت منطقة سيناء في مصر وخارجها بأنها مكان رئيسي للحروب مع إسرائيل، وممر للكثير من الغزاة على مدار التاريخ. وبعد توقيع معاهدة السلام بين القاهرة وتل أبيب منذ أربعة عقود تحولت إلى بؤرة لزراعة وتجارة المخدرات، وتهريب البشر والأسلحة، ووكر للإرهاب، وبدا سكانها كأنهم لا ينتسبون إلى القطر المصري.

بدأت الصورة تتغير الفترة الماضية، وتصبح سيناء في قلب المشروعات التنموية، وجرى فك عزلتها الطويلة وربطها بالوادي عبر شبكة ممهدة وكبيرة من الطرق والمواصلات، وتدشين أنفاق تحت مياه قناة السويس، بعد أن كانت سببا رئيسيا في ترسيخ جملة من الانطباعات السلبية.

نجم التباعد من تعامل رؤساء مصر معها كمسرح عمليات عسكرية مع إسرائيل يجب أن يكون مفتوحا ودون عوائق، ولا يتكدس فيه المزيد من البشر، فالتهديدات الإقليمية لم تنته تماما، ويمكن أن تعود سيناء ساحة للصراع، إلى أن جاء الرئيس الحالي عبدالفتاح السيسي وقرأ التحولات وأدخل تعديلات هيكلية على هذه الاستراتيجية.

ربما تغيرت القناعات بشأن مصادر التهديدات الخارجية، وتبدلت طريقة التعامل معها، لكنها تجمع في الحصيلة النهائية على أن إسرائيل تمثل مشكلة أمنية دقيقة تتطلب رؤية تراعي المستجدات والتطورات. فالتعمير ودخول شركات عالمية باستثمارات كبيرة وتوسيع نطاق المصالح يكفي للدفاع عن سيناء وتوفير الهدوء والاستقرار لها، وتحقيق انتصارات متعددة دون الحاجة إلى الدخول في معارك مكلفة.

لم تعد الحروب الحديثة تعتمد على الأرض الفسيحة أو الالتحام المباشر بين الجيوش، والقصف بالصواريخ والطائرات، بل دخلت طورا قلل من هذه الأدوات والتعويل عليها بمفردها، فالبشر والحجر والتنمية والخروج من الفقر والازدهار عمليات مهمة لخدمة الأمن القومي، بالتوازي مع الوسائل العسكرية المختلفة.

أدى حصر سيناء كساحة مواجهة إلى إهمال الحكومات المصرية المتعاقبة لها ومنحها النزر اليسير من المشروعات التي لا تكفي الحد الأدنى لسد حاجات ساكنيها، ما دفعهم إلى البحث عن مصادر أخرى للتنمية الذاتية غير المشروعة، فانتشرت الكثير من الأعمال القذرة التي شارك فيها عدد من القاطنين في سيناء منذ عقود طويلة ولوثت سمعتهم.

ساعد شيوع بعض الظواهر القاتمة في تعميق الهوة مع سكان وادي النيل والدلتا في العمق المصري، ووصلت المسألة حد شعور السيناوي بالغبن، كأنه مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهو إحساس عمقته واستغلته عناصر متطرفة لنشر أفكارها، وخلقت شبكة مصالح استفادت منها في تحويل سيناء إلى إحدى أخطر بؤر الإرهاب.

دفعت الدولة ثمنا ماديا ومعنويا باهظا جراء مكافحة الإرهاب، ورأت أن التنمية أداة مركزية لضمان السيطرة على هذه البقعة، ومنع دخول أشرار يروجون لبضاعتهم فيها، لأن المستفيدين من التنمية الحقيقية عليهم حماية مصالحهم بأنفسهم.

خططت الحكومة لزرع الملايين من البشر في سيناء، وجلبهم من محافظات مختلفة وصهرهم مجتمعيا واقتصاديا من خلال تقديم حوافز متباينة لتشجيع الهجرة الداخلية، والحد من بورصة التكهنات التي رسمت لسيناء سيناريوهات على أنها منطقة غير مأهولة بالبشر، ما يغري بالعدوان عليها، وتحويلها إلى مستنقع يستنزف القدرات والطاقات، الأمر الذي عجّل باستدارة نوعية وقاد إلى إعادة النظر في بعض المسلمات.

ينهي تنفيذ التواصل وملحقاته المجتمعية، وإلى الأبد، الشعور بالاغتراب، وما نجم عنه من تداعيات أثرت على صورة أهالي سيناء في الوجدان العام، ويخرجهم من دوامة أنهكت شرائح كبيرة منهم، ووأدت الكثير من المواهب، وجرّت البعض إلى مزالق غامضة.

يكسر تعميم التنمية جانبا مهما من الحواجز التي فصلت بين شمال ووسط سيناء وجنوبها. ففي الوقت الذي شهدت فيه منتجعات شرم الشيخ ودهب والطور ونويبع تطورات تنموية كبيرة، بقيت مناطق أخرى مهمشة أسهمت في تجذير الفجوة، ورفعت توظيف الجغرافيا إلى الدرجة التي أصابت فيها القابعين في نطاقها بأمراض مزمنة.

تشجعت الحكومة في الاقتراب من أصل الداء، وتحويله إلى دواء وتجرع كل مراراته، فبوادر النهضة التي تشهدها سيناء يمكن أن تجعلها منطقة جذب خارجية أيضا، وتخفّض من مستوى الرهانات على استمرار مخاوف الحرب في ظل السلام، وتخفف من وطأة العقيدة العسكرية السابقة بشأن أهمية سيناء في الفكر المصري.

علاوة على أن التمادي في التركيز على شمال سيناء يقطع الطريق على سيناريوهات نسجها خيال البعض لاستغلال المساحة الشاسعة من الفراغ، والذي شجع بعض الدوائر الأميركية على تسوية القضية الفلسطينية على حساب اقتطاع جزء من سيناء وضمه إلى غزة، ضمن صفقة تعيد ترسيم خارطة المنطقة بالرؤية التي تريدها واشنطن.

جاء الرد عمليا من خلال خطة طموحة لإعادة تموضع سيناء في التقديرات الوطنية، فالتنمية وما يصاحبها من تعمير في الفضاء العام يؤكدان أن أي تسوية سياسية لن تكون على حساب الأرض المصرية، وخاضت القاهرة معركة تفاوضية طويلة مع تل أبيب لاستعادة نحو كيلو واحد في طابا، ومن يفعل ذلك مستحيل أن يفرّط في المئات أو العشرات من الكيلومترات.

ليس صدفة أن يتزامن تعظيم القيمة التنموية لسيناء مع ما يتردد من مشروعات إقليمية تشارك فيها دول عديدة، فإذا قدّر لبعضها دخول حيز التنفيذ يمكن أن تتحول سيناء إلى منطقة وصل بعد أن كانت لفترة طويلة تمثل منطقة عزل وقطع.

ويتجاوز الوصل حدوده المحلية المعروفة، ويغير من طبيعة التحالفات ويضعها في إطار إقليمي يتناسب مع السعي الحثيث نحو شرق أوسط في طبعة جديدة ومنقحة.

تشير جملة من المعطيات إلى أن مصر تريد أن تتحول إلى نقطة أو مركز تلتقي عنده مشروعات تعاون صاعدة، واتخذت القاهرة حزمة من الإجراءات التي تساعدها على تحقيق هذا الهدف، خاصة في مجال الإصلاحات الاقتصادية الرئيسية، وتقوية البنية التحتية في سيناء، لجذب رؤوس أموال أجنبية يتكفل أصحابها بالدفاع عنها.

يتخطى تغيير ملامح سيناء الناحيتين الاقتصادية والبشرية، ويصل بها إلى جعلها محورا أساسيا في الأهداف السياسية، ونقلها من مركز تجاهلته الخطط التنموية فترة طويلة لأسباب عسكرية إلى آخر تنصهر فيه الطموحات.

في هذا السياق، تصبح سيناء في النهاية منطقة تتكامل فيها المشروعات بدلا من أن تتصارع فيها الإرادات، بالتالي يتم بنعومة حل إشكالية تاريخية جعلتها كمطمع للكثير من الجهات، وتزداد الصورة الذهنية لساكنيها نصاعة في العقل المصري.